

تحريم التدخين عند الفقهاء.. السجارة تغيير لخلق الله

اجتهاد الفقهاء جرى لعلل دينية لا صلة لها بالصحة



كثير من الدخان الحرام والقليل من القات الحلال

الإخوان في تحريم الدخان، جاء فيه على آراء الفقهاء وما يمكن قياسه لتحريم أو تحليل الدخان، من المالكية والحنفية والشافعية، ومن أبرز التحريمات التي وردت في الكتاب، أنه يُذكر بالنار (جهنم)، مستشهداً ببیت لآبي العلاء المعري (ت.449هـ)، مع أن الشاعر لا يقصد التبغ "وكالأسار الحياة فمن رمادها/ وأخرها وأولها دخان" (ورد في لزوم ما لا يلزم). عد القسطنطيني أسباب تحريم الدخان بخمسة عشر سبباً، منها أن السلف لم يعرفه من قبل، وأنه بدعة وكل بدعة ضلالة، ويُغير البدن ويؤذنه، ويُسفل عن عبادة الله، يُنسه باكل النار وهي جنس من العذاب، فيه رائحة كريهة وقذارة، إضاعة المال وغيرها. يختم القسطنطيني كتابه في نقل ما قاله الشعراء: "وبعد فالقول في هذا الدخان الذي عمّ في القطار في كل الميادين/ فشره وتعاطيه بلا سبب/ حق حرام بتحقيق وتمكين/ لخبثه وظهر النتن م/ وكه/ وما يُحلله سوى الشياطين".

حرم بعض الفقهاء التدخين وأخرون أباحوه، حتى أن البعض اعتبره لا يفطر الصائم، وكل هذا جرى لعلل دينية لا صلة لها بالصحة

ليس ما ذكرنا هو كل ما ورد من مخطوطات أو كتب في تحريم الدخان، فهناك عدد من المخطوطات التي يُذكر أصحاب معاجم الكتب، ومنها "الربيهان" الذي اجتناب الدخان "لإبراهيم القاني المالكي (ت.1041هـ)، و"الرسالة الخنائية" لأحمد القساري الحنفي (ت.1043هـ)، و"هدية الإخوان في شرب الدخان" لمريضة الزبيدي (ت.1205هـ)، "تحفة النسك في شرب التنباك" لعبد الرحمن مقبول اليميني (ت.1250هـ)، وغيرها. قلنا: لا يُتيسر للمحررون إلى أضرار صحية، بل إن المخطوط الأخير أشار إلى المنافع، لكن بعضهم ربط بين الدخان والنار واحترام المجوس لها، وعذاب الآخرة. كذلك أن التحريم المذكور علاقة مباشرة بالضرر الاقتصادي واللهم عن الواجبات، إضافة إلى مصرها الأجنبي. هذا، ومن دون إغفال إشارة بعض الفقهاء إلى تغيير شرب الدخان لرائحة فم الإنسان، والرائحة السلبية في الهواء المحيط بالجملة "أن شربه يغير لخلق الله تعالى"، وهذا من عمل الشيطان. فإذا كان الفقهاء حرموا التدخين، وأخرون أباحوه حتى البعض اعتبره لا يفطر الصائم، وكل هذا جرى لعلل دينية لا صلة لها بالصحة، من بعيد أو قريب، لكن اليوم باتي المنع لأسباب صحية، حتى أن بعض الدول تفكر في منع التدخين في الحدائق والمنزهات، بعد منعه في الأماكن المغلقة.

أن شرب الدخان حرام لوجهه عدة: الأول: أنه خبيث والله سبحانه وتعالى أحل لنا الطيبات، وحرم علينا الخبائث بائر، حيث قال الله: قل أحل لكم الطيبات. وقال البيضاوي (صاحب التفسير) رحمه الله: أي ما لم تستخذه الطبايع السليمة ولم تنفر عنه. الثاني: أن شربه يغير لخلق الله تعالى، وهو بأمر الشيطان، كما قال الله تعالى حكاية عن الشيطان: ولأمرنهم فليغرين خلق الله. قال الله خلق أفواه الإنسان طيبة. الثالث: أن فيه إيذاء للمسلمين والملائكة، في تغيير رائحة الهواء. الرابع: أنه إسراف المال وإتلافه. الخامس: أن فيه مخالفة لولي الأمر، حيث نهى عنه السلاطين".

مخطوطة رقم "C717D" بعنوان "تضيحة عباد الله وأمة رسول الله" مسجل على غلافها التاريخ 1180هـ، ورد فيها ما نصه "أن شرب الدخان الخبيث، وإيخاله في الجوف حدث في عصر قبل ورة الأنبياء، وكثر نصوص الدين، لأنه ظهر بعد ألف ونيف من السنين الهجرية، وشاع وانتشر بالآفاق والأرضين، ولم يكن في زمان الصحابة الكرام، ولا في أوان المجتهدين العظام والتابعين لهم بإحسان. ولهذا ما وجد حكمه منصوصاً في الكتب الفقهية، والأحاديث النبوية العامة والآيات القرآنية الشاملة الأحكام. وكنت سُئلت قديماً في بلدة أحمد آباد، صانها الله عن الآفات عن حكمه. فأجبت لو كان في زمان المجتهدين لحكموا عليه بالتحريم وسموه أبا الخبائث، كما سماوا الخمر أم الخبائث... يستأصل شرب هذا الدخان من البلاد ويحصل له الأجر الجزيل".

مخطوطة رقم "d717D" بعنوان "رفع الاشتباك عن تناول التنباك"، لإمام مقام خليل الرحمن عبدالقادر الحسيني الطبري، تقرراً في الحيات التام "قد ظهر في هذه الأزمان القريبة نبات يُسمى التنباك، ويُقال له طاب وتفن. وهو أنواع مختلفة، باعتبار البلدان التي غرست أو استتبت فيها. كان أصل ظهوره في بلاد المغرب وبلاد الهند، وذلك أجود أنواعه، ثم استتبت في الحرمين الشريفين ونواحيهما... واستمر أمره في التزايد. ورفعت أسئلة السائلين عن حكمه الشرعي، واختلف إفتاء العلماء فيه، ووردت أسئلة من بلاد البصرة وبلاد الإحساء، صحبة الحاج، في أنواع هذا النبات وكيفية استعماله، وبين طبعه، وذكر بعض منفعه، فاما أنواعه فمختلفة، باعتبار الأماكن التي يستتبت فيها. فمنه الكناية وهو أجود الأنواع طعاماً وريحاً ونفعاً. يُجلب من أماكن مخصوصة من بلاد الهند... للناس في ما يعشقون مذابه".

كتاب تحفة الإخوان

إلى جانب تلك المخطوطات صدر كتاب صنهه الشيخ الجزائري عبدالقادر القسطنطيني (ت. 1780) تحت عنوان "تحفة

شنت الحرب على التتن أو الدخان قديماً، وكان استعمالها غير مرغوب فيه، فقام الفقهاء بمهمة محاربتها أولاً، أول ما غشي بخاته المنطقة، دون انتظار مختبرات مراكز السرطان العالمية، لكن مثلما تقدم ليس لسبب يخص صحة الناس. كذلك حربهم عليه لم يكن بكتابة عبارة أقرب للدعاية، له تكتب تحت الكلمة الممنعة "سبب رئيسي لسرطان الرئة وتصلب الشرايين".

جرت حرب الفقهاء بالفتاوى، والتدخل المباشر عند السلطات، على أنها حرام، مثلما جرى تحريم شرب القهوة أيضاً، وهذا موضوع آخر، سنأتي عليه في موضع آخر لكنهم لم يقدروا حتى على التقليل منه. ظهر تحريم الدخان في القرنين الثامن والتاسع عشر، أي بعد دخول التتن إلى المنطقة، وممارسة زراعته وتجارته وصناعته.

في ذلك الوقت لم يدخل حتى الشاي نفسه، إلى الجنوب العراقي، أو البادية على سبيل المثال لا الحصر. فكانت ثمرة شجرة النخيل تعوض عما يؤخذ بعد الطعام، فمن العادة أن تناول النمر بعد أكل السمك يقطع العيش، وهذا ما يقوم به الشاي. لكن سرعان ما تحولت البادية إلى دروب نسل في تهريب أجود أنواع التبغ، على حد ما تقول الدعابة.

مخطوطات موضوعها التبغ

وجدنا عدة مخطوطات في المكتبة البريطانية، يورخ أصحابها لظاهرة التدخين، ويبدون رأيهم فيها بين محرم ومحاي. مخطوطة رقم "D717b" بعنوان "رسالة تخلص الإنسان من ظلمات الدخان"، مؤلفها أو مالكيها مولانا نافع أفندي. ورد فيها "وحدث في أوائل القرن العاشر شيء يُقال له دخان (في التركية يسمى، التبغ، دخان فقط/ المنجد)، والطائفة التنباك والتتن، أول من جلبه إلى البر الرومي (التركي حالياً) رجل يهودي، يزعمونه حكيمًا (طبيباً). وأول من جلبه إلى بلاد السودان المجوس، ثم جلب إلى مصر والحجاز واليمن والهند، والإفلاق وعمت البلوى... في الخامسة بعد الألف ظهرت أوراق في بلدنا (لعلها مصر) تسمى طابا وتنباك، وأبتلى الله تعالى المسلمين بتدخينها، وشرب دخانها، وزعموا أن ذلك دواء لكل مرض، وشح عليها الأمر... حتى صارت غالبية الأثمان، فسا رأي العلماء فيها، فقال بعضهم، والذي عندي في ذلك إنها من غش الشيطان وتزيينه لهم".

يذكر صاحب المخطوط رأي الفقهاء الدخان بقوله "سئل عنه العلماء، منهم العلامة السنهوري، فافتوا بالتحريم، وتابعه على ذلك أهل الدين والصلاح من الحنفية والمالكية، وخالف بعض الشافعية".

كُتبت مخطوطة رقم "G717D" اسمها "تحريم الدخان" تحت العنوان عبارة "رسالة حرمت التنباك"، ورد فيها "علم

الشجرة البري والبستاني، ورقها يغلب عليه البياض، إنه الحشيش. استخدمه الشرقيون الأوائل في المحاسن من الأسور، قبل أن يدخلها المتاجرون، ويحولوها إلى مقاصد أخرى. فتعاطيها بكميات محسوبة يطرد الريح، ويخفف الألم، ويزيل عسر الهضم، ويسهل الإماء، ويزيل البلغم، ومثلما عد ابن سينا منافعه عدد مضاره أيضاً. فهو: يُظلم البصر، ويخفف المنى، ويضعف المعدة.

يذكر النووي أيضاً، من الشجر القاتل لتفكير الإنسان ونشاطه العضلي، شجرة الخشخاش، ويقول ابن سينا "وعصارة الخشخاش المصري الأسود هو الأفيون، وهو مخدر مُسكن لكل وجع، سواء شرب أو طلي به". ومن الشعر فيه "خضراء قد نبطت على حسن حالها/ بإكليلها لما استطاعت قناتها".

الغريب أن كل الأشجار الروحية، من التبغ أو الحشيش أو الخشخاش، تتوَج بورد جميل الألوان، يستلطفه الناس فيزينون به منازلهم، قيل أن يشرف المجربون عن ماهيته، ما عدا شجرة القات فهي أوراق خضراء من شجرة دائمة الخضرة، لم تتلها فكرة التحريم، فهي عصب مجتمعات القرن الأفريقي. رغم أن اليمن الديمقراطية سابقاً، حاصرتها أكثر من عشرين عاماً، وكانت النتائج إيجابية جداً، فبعد الوحدة مع شمال اليمن سرى قانون الشمال، بتعاطيها في كل أيام الأسبوع بعد أن كان يتم تعاطيها يومي الخميس والجمعة فقط، ويحرم دخولها محافظة حضرموت، فهي تاريخياً ظلت بعيدة عنها.

ليس هناك من أثر للتبغ أو التنباك في معاجم اللغة العربية، ولا اللغات الشرقية،

لأنها غير معروفة بالمنطقة، لكن بلدان الشرق الفتح باسم جديد هو "التتن"، ثم اختزل إلى دخان، ويُعاد إلى أصله الأميركي، وأوروبا باسم دخان أو سجارة، وهناك من يرى أن سيجار لفظة أجنبية، رغم أن الفعل عربي، يسجر أو يشجر التنور، وهذا له مناسبة أخرى في العلاقة بين الشجر والنار.

سموم مميتة، ومع ذلك تُعد سوقها من أنشط الأسواق، لكن في العديد من الدول يمنع تدخينها في الأماكن المغلقة.

أي شجرة هذه تذل الكبار وترفع الصغار؛ لهذه الشجرة قصص طويلة مع المبدعين من فنانيين وأدباء، السجارة بيد والقلم بيد أخرى. ومن هروب الفقراء من تكاليف أوراق التبغ اعتادوا تدخين سجائر فارغة من التبغ، تسمى في العراق بـ"المزين"، لكنهم سرعان ما يتحولون إلى مدمنين على أي دخان. لا أنقل نكتة ولا أنسخ حكاية، عندما أروي مشاهدتي لحمار بقرتنا في جنوب العراق، يحمل التراب الذي يُدرا فيه الطوفان السنوي، مع سرب من الحمير، يصرن ذلك الحمار على سايسه ولا يتحرك، وكان حافره تسمر في الأرض، إلا بعد أن يضع السائس في أنفه سجارة كبيرة، تتناسب مع فتحة منخره، بعد أن تُف له من عدة أوراق من "البافرة" في داخلها قليل من التتن ثم يضعها في منخره بعد أن يشعلها. فما هو جبروت هذه الشجرة الذي غلب دخانها صبر الحمار؟

وصفت شجرة التبغ في "الموسوعة الميسرة" بأنها نبات من الفصيلة الباذنجانية، اسمها العلمي "نيكوتيانا تاباكوم". وموطنها الأصلي الدنيا الجديدة (أميركا)، استعملها الهنود الحمر في المناسبات الدينية، وانتشرت زراعتها في الأمريكيتين، قبل وصول الأوروبيين بزمن طويل. أدخل التبغ إلى أوروبا عام 1586، واستعمل نباتاً للزينة وللاغراض الطبية. لكن انتشار التدخين فيها كان في العام 1586. وحسب معلومات الموسوعة المذكورة، فإن هناك حوالي مئة نوع من نبات التبغ.

ووصل التبغ إلى الشرق بعد أن استمتع بدخانته الأوروبيون رخسا من الزمن، ولم يكن هذا التأخير مقصوداً، بقدر ما يعود الأمر إلى رداءة المواصلات، وغياب فن الدعاية، كما هي رعاية سجائر ونستون والروثمان والكنت والكريفن.

لهذا تأخرت زراعته أو تعاطيه بمصر حوالي 30 عاماً من وجوده في أوروبا. لكن بعد عام أصدرت الحكومة المصرية قانوناً يحرم زراعته، وذلك بسبب إهمال الأشجار الأخرى من قبل الفلاحين، فزراعته مرعبة قياساً ببقية المزروعات، وربما غير مكلفة. فمن الصعب التصديق بأن الحكومة المصرية آنذاك منعت زراعته للسبب المذكور أو حفاظاً على قوت وصحة المواطن، فالأمر لا يخلو من الإمتثال لإرادة احتكاراته الدولية.

أشجار مكيفة أخرى

مقابل قدم شجرة التبغ، حتى أن بعض الباحثين يتصورونها قبل التاريخ الميلادي بثمانية آلاف عام، في الشرق هناك من المؤثرات الورقية على العصب ومطبيبات المزاج، يذكر النووي في "نهاية الأرب" شجرة الشهدانج أو الشاهدانج، ومن هذه

شجرة التبغ هندية حمراء، نسج الهنود الحمر، حولها، حكايات وأساطير عديدة دارت حولها، بأكثر انفعال ووجدان من حكاياتنا حول شجرة النخيل والسدر، فالتبغ عندهم مثل ذات أنواع، عند العرب، في الزمن الغابر. فبدخانها كانوا يتبركون، وينتظرون مواسم أجمل، تجلب لهم الخير الوفير، ومن حكاياتهم حولها "والآن إن كل الأرواح تأتي من بعيد، بعاطفة شديدة، من أجل التبغ" (جوردان كوودمان، التبغ في التاريخ ص26). لذا لا يجوز، عندهم، قطعها أو إيذاؤها بشكل من الأشكال. ولا يُذكر مقاتلو العصابات في أودية الجبال مع البندقية، غير التتن. إنها شجرة ليست طيبة، تدخل أوراها بيوت الفقراء لفقهم وبيوت الأغنياء لغناهم، توهم الجميع بالسعادة، فمع دخانها يخرج الضجر، ليخلفه "نيكوتينا" القاتل. كثيراً ما تقاس، في مجتمعاتنا، أخلاق الصبيان والطلاب والنساء على الموقف الرجولة، كما يظن الصغار. ينهي عنها الأطباء ويدخونها في عياداتهم، وتنقش على عليها عبارات محذرة مخيفة، مثله مثل التحذير من مجال كهربائي أو

رشيد الخيون
كاتب عراقي

إن التبغ أو التنباك أو التتن أسماء لشجرة واحدة، لها سطوة محيرة وكبيرة على متعاطي أوراها، فالقليل منهم فقط لم يهييوا به إلى درجة ارتجاج الأطراف، وتغيير المزاج، وظهور أعراض الهيام والوجد وعدم الصبر عليه. سبب تحريمه، في نهاية القرن التاسع عشر أزمة سياسية كبرى بين إيران وبريطانيا، لأنت لها العروش، غير أن السبب كان سياسياً ولا صلة له بالمخاطر الصحية، كذلك أن تحريم السلفية له لم يكن نابعا من أمر صحي، بقدر ما نبع من أن استخدامه بدعة، ويشغل متعاطيه عن عبادة الله وذكره.

وحول ما يخص فتوى تحريم تعاطي "التنباك" بإيران، فإن أوراق تلك الشجرة لم تكن هي المقصودة بالفتوى، مثلما تقدم، وإنما بسبب احتكار استثمارها من قبل الشركات البريطانية، ما يؤدي إلى إفقار تجارها الإيرانيين. ففي العام 1891 بعث العلامة ميرزا حسن الشيرازي (ت. 1898) من سامراء، حيث كانت مدرسته الدينية وإقامته، برقية إلى طهران شجب فيها منح امتياز التبغ لشركة التنباك البريطانية، ولما لا ينفع الاحتجاج صعد الموقف إلى إصدار فتوى تنص على تحريم التدخين بالكامل.

بعدها، اختلفت الوفود على سامراء لإقناع المرجع الأعلى آنذاك للترجع عن الشجب والفتوى، وبعد اليأس "اقترحت الحكومة وقف المقاطعة وحصر الامتياز على تصدير التبغ فقط" (الأنصاري، الفقهاء حكام على الملوك، ص99)، لكن الفتوى صدرت وشملت العمل في مجال التنباك تماماً "بسم الله الرحمن الرحيم، اليوم، استعمال التنباك والتتن باي نحو كان بحكم محاربة إمامة الزمان عجل الله فرجه" (النوري، النجم الثاقب عن نهضة روحانيون إيران).

شجرة التبغ ليست طبقية،

إذ تدخل أوراها بيوت الفقراء لفقهم وبيوت الأغنياء لغناهم، وهي توهم الجميع بالسعادة

فإذا كانت تلك الفتوى موجبة إلى التبغ الإنكليزي (بعد تصنيعه)، ومقاطعة العاملين في زراعته وحصاده، فبعد أكثر من قرن من إصدارها، يتحرك علماء دين للترويج بفتوى تحريم التعامل مع البضائع الأميركية، رداً على سياسة أميركا تجاه لبنان، وفي مقدمة تلك البضائع التبغ الأميركي، الذي يشكل مع البيبسي كولا وملابس الجينز ثلاثي الهيمنة النفسية على شباب العالم، وسنركز على ما صنّف من كتب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

أصل شجرة التبغ

شجرة التبغ هندية حمراء، نسج الهنود الحمر، حولها، حكايات وأساطير عديدة دارت حولها، بأكثر انفعال ووجدان من حكاياتنا حول شجرة النخيل والسدر، فالتبغ عندهم مثل ذات أنواع، عند العرب، في الزمن الغابر. فبدخانها كانوا يتبركون، وينتظرون مواسم أجمل، تجلب لهم الخير الوفير، ومن حكاياتهم حولها "والآن إن كل الأرواح تأتي من بعيد، بعاطفة شديدة، من أجل التبغ" (جوردان كوودمان، التبغ في التاريخ ص26). لذا لا يجوز، عندهم، قطعها أو إيذاؤها بشكل من الأشكال. ولا يُذكر مقاتلو العصابات في أودية الجبال مع البندقية، غير التتن. إنها شجرة ليست طيبة، تدخل أوراها بيوت الفقراء لفقهم وبيوت الأغنياء لغناهم، توهم الجميع بالسعادة، فمع دخانها يخرج الضجر، ليخلفه "نيكوتينا" القاتل. كثيراً ما تقاس، في مجتمعاتنا، أخلاق الصبيان والطلاب والنساء على الموقف الرجولة، كما يظن الصغار. ينهي عنها الأطباء ويدخونها في عياداتهم، وتنقش على عليها عبارات محذرة مخيفة، مثله مثل التحذير من مجال كهربائي أو